الاستشراق تعريفه ونشأته ودوافعه وأهدافه

أ.د. محمد موسى محمد احمد البر ( )

ملخص البحث

بعنوان الاستشراق تعريفه ونشأته ودوافعه وأهدافه

هذا البحث (ماهية الاستشراق) اهتم بهوية الاستشراق من خلال تعريف الاستشراق لعدة علماء ومن عدة مراجع ومن خلال رؤية إسلامية والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.

واهتم الباحث بشأن الاستشراق وأورد في ذلك آراء العلماء من الغرب الأوربي .حيث أوضحوا أن الاستشراق مرّ بمراحل . وفي البحث استعرض الباحث دوافع الاستشراق وكان أهمها الدافع الديني . وكان أعظمها وأكثرها فائدة الدافع العلمي .

وأوضح الباحث أن تحقيق الباحثين العلميين أدى إلى إسلام بعضهم غير أن أعمالهم لا تلقى رواجًا في أوربا إلا قليلاً . ومن واقع حركة الاستشراق وجد الباحث للمستشرقين أهدافًا . وجعل المستشرقون أهدافهم لحماية الإنسان الأوربي من خطر الإسلام بزعمهم .والباحث بهذا البحث يكون قد أجاب عن سؤال ماهية الاستشراق .

(●) ا.د محمد موسى محمد احمد البر استاذ بكلية الدعوة والاعلام بجامعة القرآن الكريم والعلوم الاسلامية.

المبحث الأول
تعريف الاستشراق

نستعرض بعض التعريفات للاستشراق حتى نقف على بعض الحقائق المتصلة بهذا الموضوع المهم بتأريخه ودوافعه وأهدافه ووسائله ومناهجه وأعماله .

يراد بالاستشراق دراسة علوم الشرق و أحواله وتأريخه ومعتقداته وبيئاته الطبعية والعمرانية والبشرية ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمة الشخصية في كل مجتمع شرقي فلكل أمة مشخصاتها ودراسة الأشخاص والهيئات في شتى صورها وأنواعها.(١)

الاستشراق دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية للشرق بشتى تأريخه وثقافته وأديانه ولغاته ونظمه الاجتماعية والسياسية وثرواته وإمكانياته من منطلق التفوق العنصري والثقافي بهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعملية.(٢)

يرى د. محمود حمدي زقزوق أن الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق علي كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه.(٣)

وهناك من يرى أن الاستشراق عمل ثقافي ومن هؤلاء الكاتب المصري أنور الجندي إذ يقول : الاستشراق عمل ثقافي يحمل معنى دراسة الشرق وجغرافيته وتأريخه ونفسية أمته وتراثه وليس الكشف عن التراث المدفون والمخطوطات الفردية النادرة وتقديمها محققة مراجعة على مختلف النسخ مبوبة مفهرسة إلا غشاء شفاف يخفي الهدف والغاية التي في حقيقتها استكشاف الأرض المستعمرة وإعدادها للغزو والتبشير وسيطرة الاستعمار.(٤)

ومن الكتاب من يرى أن الاستشراق قوة ضد الإسلام والمسلمين وهذه واحدة من الحقائق.

إن الفكر الاستشراقي يمثل قوة باغية من القوى المضادة للإسلام والمسلمين وينسحب هذا الفكر

---

(١) عبد المتعال محمد الجبري ، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة وهبة ١٩٩٥م ، ص ١٣.

(٢) أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق ، ص ٦ بدون طبعة (لندن : المنتدى الإسلامي ، ١٤١١هـ).

(٣) محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، الطبعة الثانية (بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م) ص١٨

(٤) أنور الجندي ، تاريخ الغزو الفكري و التغريب ، بدون طبعه (القاهرة : دار الاعتصام ،١٩٨٨م) ص ١٥٣.

على كل فكر غربي أو شرقي غير إسلامي عرض لتراث الشرق الديني والحضاري وبخاصة الشرق الإسلامي بالدراسة والبحث. (١)

يقول الشيخ محمد الغزالي إن الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث العلمي وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام والافتراء عليه. (٢)

ومن الباحثين من يرى أن مصطلح استشراق مصطلح غامض وفي غاية الإبهام لأن الشرق اصطلاح ابتدعته أوربا لكل أرض الشرق التي تقع وراء حدودها شرقًا إلى اليابان بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون في مفهومه العام والغامض أيضًا على الشرق الأوسط وما في هذا الشرق من أديان

(عدا النصرانية لأن الفكر الأوربي لا يحب ربطها بالشرق) وثقافات وحضارات مختلفة والباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى (مستشرق) بالرغم من رفض الكثير من هؤلاء لهذا المصطلح. (٣)

لقد أطلقت كلمة الاستشراق على الدراسات التي يقوم بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين وأديانهم وتأريخهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك . (٤)

والاستشراق في حقيقة الأمر يشتمل على عناصر إيجابية وأخرى سلبية وعلينا أن نعترف للمستشرقين بما لهم من إيجابيات ومن ناحية أخرى فإن من حقنا بل من واجبنا أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء وما اشتملت عليه دراسات العديد منهم من أباطيل فيما يتعلق بالقرآن الكريم ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم(٥).

---

(١)محمد الدسوقي ، الفكر الاستشراقي،الطبعة الأولى (المنصورة: دار الوفاء للطباعة و النشر، ١٩٩٥م)

(٢)محمد الغزالي ، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مزاعم المستشرقين (الأهرام :١٣٩٥هـ)

(٣)قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والاقتصادية ، الطبعة الأولى (الرياض : دار الرفاعي للنشر والطبع والتوزيع ، ١٩٨٣م) ص١٠٧-١٠٨.

(٤)عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، أجنحة المكر الثلاثة ، الطبعة الثانية (دمشق: دار القلم ،١٩٨٠م) ص ٨٣.

(٥)محمود حمدي زقزوق ، الإسلام في مرآة الفكر الغربي، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار الفكر الغربي ،١٩٩٤مم) ص ١٧.

المبحث الثاني
نشأة الاستشراق ومراحله

لا شك في أن الانتشار السريع للإسلام في الشرق والغرب لفت أنظار رجالات اللاهوت النصراني إلى هذا الدين ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته ومن بين العلماء النصارى الذين أظهروا في وقت مبكر اهتمامًا بدراسة الإسلام لا من أجل اعتناقه وإنما من أجل حماية إخوانهم النصارى منه، كان العالم النصراني يوحنا الدمشقي (٦٧٦- ٧٤٩م) ومن بين مؤلفاته في هذا الصدد لإخوانه في الدين النصراني كتابه (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدل المسلمين) وبعض الباحثين ذهب إلى القول بأن البدايات الأولى ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي بينما يرى رودي بارت وهو مستشرق ألماني أن بداية الدراسات الإسلامية العربية في أوربا تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية وما ذهب إليه رودي بارت سبق وأن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف روجاد تأريخ الاستشراق في أوربا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر الذي صدر في نهاية الستينيات من القرن الماضي.(١)

إن الدارس لتأريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في رعاية الكنيسة وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت وأن روح التعصب والأفكار الكنسية والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية ، قادت الفكر الاستشراقي عبرتأريخه الطويل حتى العصر الحاضر. علي أن الاستشراق مع هذا مر بعدة مراحل أو فترات تأريخية يمكن تقسيمها على النحو التالي:

المرحلة الأولى :

تبدأ هذه المرحلة بفتح الأندلس وازدهار الحياة العلمية فيها وكذلك جزر البحر المتوسط وجنوب إيطاليا وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحروب الصليبية .

المرحلة الثانية :

وتبدأ هذه المرحلة بعد الحروب الصليبية وتمتد إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريبًا.

---

(١) محمود حمدي زقزوق، الإسلام في مرآة الفكر الغربي، الطبعة الرابعة﴿القاهرة : دار الفكر العربي،١٩٩٤م﴾ ص ٢٠.

المرحلة الثالثة:

وقد بدأت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي على وجه التقريب واستمرت إلى نهاية الحرب العالمية الثانية .

المرحلة الرابعة :

وبدأت بعد الحرب العالمية الثانية وما زالت مستمرة حتى الآن ، وكل مرحلة من هذه المراحل لها خصائصها. (١)

ويتطرق كاتب آخر لنشأة الاستشراق قائلاً: من المسائل التأريخية الشائكة تحديد المرحلة الزمنية لنشأة الاستشراق ويؤرخ بعض الباحثين لذلك بطغيان الأفكار الاستعمارية على العالم العربي والإسلامي ويعدونه مدخلاً للقوات العسكرية وحملاتهم الحربية . قبيل القرن التاسع عشر .بمعنى أن التغريب الفكري لم يسبق الغزو العسكري وحسب وإنما كان المنظر الفكري الذي سهل نفوذه من جهة والتبرير لأعماله والتسويغ لمفاسده من جهة ثانية . ولكن بعض المشتغلين بآداب اللغة العربية يرون أن الاستشراق بدأ من القرن السابع عشر فظهر أول كتاب في قواعد اللغة العربية لأربانيوس ليدن ١٠٢٢هـ -١٦١٣م وطبع (المجموع المبارك) في التأريخ لابن العميد سنة ١٦٢٥م مع ترجمة لاتينية وطبع حينذاك وأن أقدم المستشرقين المستغربين (يوكوك) الإنجليزي المتوفى ١١٠٣هـ -١٦٩١م تلقى العلم في أكسفورد ورحل إلى المشرق وأقام في سوريّة مدة ومن آثاره طبع كتاب (مختصر الدول) لابن العبري المتوفى سنة ١٠٧٤هـ - ١٦٦٣م مع ترجمة لاتينية وترجم (حي بن يقظان) إلى اللاتينية وكتاب (نظم الجواهر) لسعيد بن البطريق طبع في أكسفورد سنة ١٠٧٠هـ ١٦٥٩م ، وفي دار الكتب المصرية نسخ منه وخلفه مستشرق شهير في أواخر القرن السابع عشر هو(دربلو) الذي وضع في تأريخ الشرق وآدابه معجمًا أسماه (المكتبة الشرقية) عدة مجلدات وهي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللغة العربية والفرنسية مرتبة حسب حروف الهجاء ، تبحث في علوم الشرقيين وتأريخهم وخرافاتهم وآدابهم ونظمهم وسائر أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وغيرها، طبع ثانية سنة ١٧٨٣م.

ويرى الباحثون المختصون أن الاستشراق أقدم من ذلك بكثير فقد يرجع تأريخه في بعض البلدان الأوربية إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وربما كانت هناك محاولات مروية قبل ذلك .(وكان

(١) محمد الدسوقي ، الاستشراق تأريخه وتقويمه ، مرجع سابق ، ص ١٩-٢٠

أن سبق بعض ملوك أوربا بابواتها وأخذوا العربية من علماء الأندلس وصقلية وتعلم أمراء الصليب وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام –أيام غزواتهم الطويلة– ولما قام البابوات بإنشاء الرهبنة لبث العقيدة الدينية في الشرق بدا لهم أن يعلموا الرهبان لغاتهم ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية والسريانية ... فقضى مجمع فينا ٧١١هـ –١٣١١م برئاسة البابا آكلتس الخامس أن يؤسس في باريس وأكسفور وبولون كراس لدروس العربية والعبرانية ليتسنى لهم تدريس الطب في الكتب العربية، وفي سنة ٦٥٢هـ –١٢٥٤م أنشئت أول مدرسة عربية في (أشبيلية) من أرض الأندلس.

يقول بارت : المستشرق الألماني ، إذا نظر المرء إلى الوراء إلى تأريخ تطور الاستشراق ولم يتردد في التبسيط رغبة في زيادة الوضوح فإنه يستطيع أن يقول إن بدايته في القرن الثاني عشر، ففي ١١٤٣م تمت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (فيزابيليس) وكان ذلك في أسبانيا ونشأ أول قاموس لاتيني عربي في القرن نفسه وفي القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر بذل رايموندوس لالوس جهودًا كبيرة لإنشاء كرسي لتدريب اللغة وكان تعليم العربية علي يد عربي . ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوربا بصفة جدية بعد فترة الإصلاح الديني ، ويتابع بعضهم القول في نشأة الاستشراق فيقول ولما كان القرن السادس عشر هو مسرح الإصلاح الديني في الغرب كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصالاً اقتصاديًا سواء في كشف موارده والثروة فيه أم في استغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل تجاري ، أو في أية صورة أخرى ،حتى وصل منذ النصف الثاني من القرن العشرين إلى ما يصل إليه قوي على ضعيف .لهذا فمنذ أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ يعمل على تخلف المسلمين ، وعلى التنفيس عن الحقد الصليبي .

إن الاستشراق حركة واتجاه ثقافي عالمي فإنه يصعب تحديد بدايته ، فهو كتيار فكري يشبه الأمواج التي لا تعرف الأولى فيها والثانية ويمكن القول : إن الاستشراق بدأ مبكراً قبل القرن الثالث عشر الميلادي ثم توسع واكتملت وسائله في القرن السادس عشر، ولكنه بلغ عنفوانه وقوته في أواخر القرن التاسع عشر ، ثم تراجع عن شدته وحدته في العقد الخامس من القرن العشرين ، وما يزال

الاستشراق يعمل إلى اليوم وفي المستقبل بعنف وتطرف أقل ولكن بالتزييف والتشكيك نفسه .(١)
ومن الباحثين من يرى أن الاستشراق إنما قام لمقاومة التوسع العربي والإسلامي ، فقد نشأ الاستشراق لمقاومة الامتداد والتوسع العربي والإسلامي ، هذا الامتداد الذي عبر إلى أوربا وسيطر على إسبانيا واجتاح جزءًا من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه أو بلاط الشهداء ونفذ إلى جزيرة صقلية وبدأ يسيطر على جنوب إيطاليا معقل المسيحية وكانت نتيجة ذلك أن تألف مؤتمر فينا عام ١٣١١م الذي ترأسه البابا كليمان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة في برلين وبولون وأكسفورد تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخرج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم في عقائدهم . (٢)
ومن المؤرخين من يرجع الاستشراق إلى صدر الإسلام حيث إن كثيراً من الذين كتبوا عن الاستشراق يرجعون أسباب نشوئه إلى عوامل مختلفة منها احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤته ومن ثم غزوة تبوك ومن يومها وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية، وهناك من يرجع الاستشراق في بدايته بدراسة العلوم الإسلامية مأخوذًا بالنتائج العلمية التي حققها المسلمون ولكنه استشراق عفوي لا يضمر أي قصد سوى الاستفادة من حضارة الشرق باعتباره أنموذجًا جديدًا للحضارات.(٣)
ولذا يرى الكاتب نفسه أن حركة الاستشراق بدأت منذ العصور الإسلامية الأولى حينما وصل الإسلام إلى الأندلس وأخذ نوره يضيء ظلام القلوب والعقول من هذه البقعة التي كانت غارقة في الجهل والظلمة والتخلف، فلما تفتحت عيون أهل هذه البلاد على هذا الدين وعلى المثل

(١) نذير حمدان ، في الغزو الفكري (الطائف: مكتبة الصديق ، بدون تأريخ) ص ١٩١-١٩٤
(٢) أنور الجندي ، تأريخ الغزو الفكري و التغريب ، مرجع سابق ، ص١٥٣
(٣) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية الاقتصادية ، مرجع سابق ، ص ١٩

الكريمة التي تمثل دين الإسلام فيما يدعون إليه في مجال العلم والعقيدة واكتسح كل ما سبقه من حضارات وراع الغرب أن يكون في منأى عن تلك الصورة المشرقة فأخذ يستقي من مناهلها ، وأصبح العرب حملة مشاعل من الشرق إلى الغرب وصاروا أساتذة للأوربيين وصارت الجامعات الإسلامية في أسبانيا تعلم الكثير من الطلبة الأوربيين في أحضان أروقتها ليدرسوا كل أنواع العلم ووجد الأوربيون في حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود لديهم ، حيث كان لها من المرونحة والواقعية ما يجعلها تتناسب ورغبات الشعوب على اختلاف أجناسهم وثقافاتها ولم يكتف الأوربيون بتلقي علومهم في الجامعات الإسلامية فقد أسسوا عدة جامعات ومعاهد وكراسي لدراسة الحضارة الشرقية في بلادهم وأصبح المسيحيون في أوربا يستقون من حضارة المسلمين شتى أنواع العلوم والمعارف والفنون ودفعهم ذلك لتعلم لغة العرب ليقتبسوا من حضارتهم وعلومهم التي ظهرت في الشرق الإسلامي فحاولوا أن يصبغوا ثقافتهم بالصبغة الشرقية الإسلامية ومن ثم عرفوا بالمستشرقين.

نصل من وراء هذا إلى أن الاستشراق قد بدأ بدراسة العلوم الإسلامية مأخوذًا بالنتائج العلمية التي حققها المسلمون ولكنه كان استشراقًا عفويًّا لا يعتمد علي أي قصد سوى الاستفادة من حضارات الشرق باعتبارها أنموذجًا جديدًا للحضارات . واهتمت الدول الأوربية بإرسال بعثات إلى بلاد الأندلس لدراسة العلوم والفنون والصناعات نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الإسلامية الزاهرة. كما بعث الملك فيليب النافاري إلى الأمير الأموي بالأندلس هشام الأول ١٧٢-١٨٠هـ يسأله السماح له بإيفاد هيئة لاستطلاع الأندلس ودراسة نظمها وشرائعها والثقافات المختلفة فيها حتى تتمكن من نقل هذه الصورة إلى بلاده. (١)

ومن الكتَّاب من يرجع تأريخ الاستشراق إلى ما بعد فترة الإصلاح الديني في أوربا ويرجع تأريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوربية إلى القرن الثالث عشر الميلادي وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك غير أن المصادر التي بين أيدينا لا تلقي الضوء الكافي على الموضوع وإن أشارت

(١) عبد الكريم علي زيد ، افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان ، مرجع سابق ، ص ١٧-١٨

إلى بعض المستشرقين كأفراد ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر في أوربا بصفة حيوية بعد فترة الإصلاح الديني كما شهد بذلك التأريخ في هولندا والدنمارك وغيرهما. (١)

يؤيد وجهة النظر هذه عمر عودة الخطيب يقول إن علماء الاستشراق يجمعون على أن انتشاره في أوربا ظهر بصيغة جديدة بعد فترة ما يسمى في التأريخ الأوربي (عهد الإصلاح الديني) ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية ويغيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية فيشترونها من أصحابها الجهلة أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في غاية الفوضى وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم بأعداد هائلة ، نوادر المخطوطات الدينية تنتقل إلة مكتبات أوربا وبلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد وما زال هذا العدد يزداد . (٢)

أطلقت كلمة الاستشراق على الدراسات التي يقوم بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأديانهم وتأريخهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك. وقد بدأ الاستشراق هذا منذ أن دقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب أوربا العريضة ، وكان المسلمون قد احتلوا عرش السيادة

(١) محمد البهي ، الفكر الإسلامي المعاصر وصلته بالاستعمار الغربي ، الطبعة السادسة (مكة: الفيصلية ١٩٧٣م) ص ٥١٢.

(٢) عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية ، الطبعة الثانية (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م) ص ١٨٧-١٨٨.

الدولية وملؤوا سمع الزمان وبصره وقلبه وسائر مشاعره . وأخذت أوربا الغارقة في الجهل والتخلف الحضاري يومئذ تبحث عن أسباب نهضة المسلمين وبلوغهم هذا المجد العظيم الذي بلغوه ، وأخذ بعض رجال الكنيسة الأوربيون يدرسون علوم هؤلاء الفاتحين ولغاتهم لعلهم يظفرون بما يوقفون به هذا الفتح الإسلامي ولعلهم يكتسبون من علوم المسلمين ما ينفعهم في إنقاذهم من تخلفهم ويفتح لهم أبواب الارتقاء فكان الاستشراق طلبًا لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأوضاعهم وبحثًا عنها . (١)
ومن الملاحظ أن الاستشراق بدأ بمؤتمر فينا الذي دعت له البابوية سنة١٣١١م وذلك بعد أن طرد المسلمون الصليبيين من بلاد الشام نهائيًّا بعد سقوط عكا آخر معاقلهم في سنة ١٢٩٠م . (٢)
استعرضت فيما تقدم وجهات نظر مختلفة حول نشأة الاستشراق فوجدت منهم من يرد نشأته إلى صدر الإسلام ومنهم من يردها إلى العصور الوسطى وعصر الإصلاح الديني في أوربا وهي دراسة موسعة قصدت منها أن يلم القارئ بنشأة الحركة الاستشراقية التي اكتسحت العالم الإسلامي والعالم الشرقي بصفة عامة وقد حاولت أن أرد كل وجهات النظر إلى كاتبيها حتى يستطيع القارئ أن يرجع إلى المراجع إذا أراد المزيد من الدراسة والتتبع.

(١) عبد الرحمن حسن ، مرجع سابق
(٢) عبد الكريم علي باز ، افتراءات فيليب وكاربرو كلمان على التأريخ الإسلامي ، مرجع سابق ، ص١٨.

المبحث الثالث
دوافع الاستشراق

من خلال دراسة أعمال المستشرقين وما خططوا له من أهداف يمكن أن نحدد دوافعهم كما لخصها الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه أجنحة المكر الثلاثة فيما يلي:

١-الدافع الديني :

لقد بدأ في حضن الكنيسة وبدأ بالرهبان ثم استمر معظم المستشرقين من رجال الكهنوت،وهؤلاء يهمهم أن يطعنوا في الإسلام ويشوهوا محاسنه ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التي تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار وأن المسلمين قوم همج لصوص وسفاكو دماء يحثهم دينهم على الملذات الجسدية ويبعدعم عن كل سمو روحي وخلقي ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحديث بعد أن رأوا الحضارة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة وهم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى ثم الحروب الصليبية ثم الفتوحات العثمانية من بعد في نفوس الغربيين من خوف من قوة الإسلام وكره لأهله فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطًا في الدراسات الإسلامية وحين قامت جمعيات التبشير ووضعت من أهدافها تحويل المسلمين عن دينهم إلى النصرانية أو إلى اللادينية والإلحاد الكامل كانت دوافع الاستشراق لدى المستشرقين وأنصارهم ومؤيديهم هي دوافع التبشير نفسها وتتلخص بسلخ المسلمين عن دينهم ومحاولة إدخالهم في النصرانية واتخذوا لتحقيق ذلك وسائل منها تنفير المسلمين عن دينهم وحملهم علي كراهيته بتشويهه والتشكيك في أسسه وتوجيه المطاعن له، وبفعل نظير ذلك في التأريخ الإسلامي وحضارة المسلمين وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث ومنها تزيين ما في المسيحية من تعاليم وأحكام واستدراج المسلمين للأخذ بالحضارة المادية الحديثة وما فيها من مغريات للنفوس وآسرات للشهوات وباهرات للنظر .

٢-الدافع الاستعماري:

لم ييأس الصليبيون بعد هزيمتهم في الحروب الصليبية من العودة إلى احتلال بلاد العرب وسائر بلاد المسلمين ، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات وتأريخ وغير ذلك مما يتعلق بها من جغرافية وسكان بغية أن يتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها ولما تم لهم الاستيلاء الفكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وبث الوهن والارتباك في تفكيرهم وكان لهم في ذلك وسائل كثيرة، تسللوا بها إلى نفوس أبناء المسلمين وأفكارهم منها التشكيك بفائدة ما في أيدي المسلمين من تراث وما عندهم من عقيدة وقيم إنسانية والغرض من ذلك أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ويرتموا في أحضان الغرب يستمدون منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ والعقائد والعادات والتقاليد وأنواع السلوك ، ليتم للغرب بذلك إخضاع المسلمين لحضارته وثقافته إخضاعًا كاملاً ومنها مفاهيم جديدة أو إحياء مفاهيم جاهلية ماتت منذ أن تمكن الإسلام في قلوب المسلمين كالقوميات الفرعونية والفينيقية والآشورية والعربية والكردية والتركية والفارسية ونحو ذلك ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الإسلامية الواحدة التي تجمعها رابطة وحدة الدين الذي يهيمن على جميع مشاعر الإنسان الداخلية وسلوكه الظاهر .

٣-الدافع الاقتصادي:

من الدوافع التي حرضت كثيراً من الغربيين على الدراسات الاستشراقية رغبتهم بغزو البلاد الإسلامية غزوًا اقتصاديًا يهدفون فيه إلى الاستيلاء على الأسواق التجارية والمؤسسات المالية المختلفة والاستيلاء على الثروات الأرضية ، واستغلال الموارد الطبعية والحصول عليها بأبخس الأثمان وإماتة الصناعات المحلية القديمة ، لتكون بلاد المسلمين بلاد استهلاك لما تصدره المصانع الآلية الغربية.

٤-الدافع السياسي:

قبل الاستعمار وبعد تحرر البلاد الإسلامية منه رأت الدوائر الاستعمارية حاجتها السياسية تقتضي بأن يكون لها في قنصلياتها وسفاراتها من لديهم زاد جيد من الدراسات الاستشراقية ليقوم لهم هؤلاء بمهمات سياسية متعددة في بلاد المسلمين منها الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة للتعرف على أفكارهم وواقع بلادهم وبث الاتجاهات السياسية التي تريدها الدول الاستعمارية فيهم

، ومنها الاتصال بعملائهم وأجرائهم الذين يخدمون أغراضهم السياسية في البلاد . وكم بث هؤلاء في بلاد المسلمين من أفكار وكم دسوا من دسائس وكم استخدموا أجراء لدس وإثارة الفتن وإقامة ثورات وانقلابات عسكرية إلى غير ذلك من أعمال سياسية عادت على المسلمين والإسلام بأضرار فادحة .

٥-الدافع العلمي:

من المستشرقين نفر قليل جدًا أقبلوا على الدراسات الاستشراقية بدافع حب العلم والاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ،وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في الإسلام والتراث الإسلامي ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون بتفكير واع أن يدسوا أو يحرفوا فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين ، بل منهم من اهتدى بدراسته للإسلام وآمن برسالته . على أن هؤلاء لا يوجدون إلا حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى ، لا تلقى رواجًا لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة ولا عند الباحثين لذلك فهي لا تدر عليهم مكاسب ومغانم وطبعي أن يندر وجود هذه الفئة في أوساط الحركة الاستشراقية.(١)

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، مرجع سابق ص ٩١-٩٤

المبحث الرابع
أهداف الاستشراق

تتلخص أهداف الاستشراق في تحويل المسلمين من دينهم وتقطيع أوصال جماعتهم الإنسانية الكبرى وبثها إلى وحدات صغرى متقاطعة متنافرة ومتدابرة يقاتل بعضها بعضًا ويجافي بعضها بعضًا (١) واقع الحال شاهد على ما فعله الاستشراق في العالم الإسلامي إذ تعددت أسماء دوله وتعددت وحداته السياسية بعد أن كان دولة واحدة من طنجا غربًا إلى جاكارتا شرقًا. تقدر الأبحاث والكتب التي كتبها المستشرقون عن الإسلام في الفترة من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين بنحو (٦٠٠٠٠) ستين ألف كتاب فلِمَ كل هذا الاهتمام ولِمَ كل هذا العناء؟. ستون ألف بحث وكتاب في تأريخ الإسلام وعقائده ومذاهبه وفقهه وسيرة نبيه صلى الله عليه وسلم... لِمَ كل هذا ؟ إن الاستشراق يرمي من وراء ذلك إلى هدفين:

الأول : حماية الإنسان الغربي من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به ويحمل رايته ويجاهد في سبيله كما كان من المسيحيين في الشام ومصر والشمال الأفريقي وأسبانيا من قبل حين دخل الإسلام هذه الأصقاع فدخل أهلها في دين الله أفواجًا ، وصاروا من دعاة هذا الدين الحنيف وحماته والمنافحين عنه .بل أعجب من ذلك أيضًا أن أخرج الله تعالى من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . كانت هذه غاية الاستشراق منذ نشأته محاولة لتبشيع صورة الإسلام وأهله حتى لا يتتابع من بقي من رعايا الكنيسة على الدخول في الإسلام مثلما فعل أضرابهم من أهل الشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس.

الثاني: الهدف الثاني للاستشراق هو معرفة الشرق ودراسة أرضه ومياهه وطقسه ، وجباله وأنهاره وزروعه وثماره وأهله ورجاله وعلمه وعلمائه ودينه ، وعقائده وعاداته وتقاليده ولغاته . كل ذلك لكي يعرف كيف يصل إلى الشرق. فقد ظلت دار الإسلام مرهوبة مخوفه ، لم تستطع الصليبية المقهورة أن تحاول – مجرد محاولة– اختراقها لعدة قرون وكانت المناوشات والاحتكاكات على الثغور والأطراف تحسم دائمًا لصالح الإسلام والمسلمين ولما

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، مرجع سابق ص ٩١-٩٤، ص ٩٤

حاولت الصليبية الغاشمة اختراق ديار المسلمين في مطلع القرن السادس الهجري رجعت بعد نحو قرنين٤٨٩-٦٩٠هـ من الزمان عادت مقهورة مدحورة لكنها ما فتئت تدبر وتغدر وتحاول الالتفاف حول ديار الإسلام لما استعصى عليها اختراقها وكان الاستشرق هو رائدها الذي يرتاد لها الطريق.

كان المستشرقون جند المسيحية الشمالية وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر ورضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة والغنى والصيت الذائع وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب،مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها وفي قلوبهم كل اللهيب المحض الذي في قلب أوربا والذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام . (١)

ولقد اعترف المستشرقون أنفسهم بأن هذه أهدافهم ، يقول الأمير كايتاني وهو إيطالي الجنسية وهو الذي جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لترتاد مناطق الفتح الإسلامي وترسمها جغرافيًّا وطبوغرافيًّا وجمع كل الدوريات والأخبار عن حركة الفتح في اللغات القديمة . واستخلص تأريخ الفتح في تسعة مجلدات ضخمة بعنوان (حوليات الإسلام) بلغ بها سنة أربعين هجرية قال هذا الأمير الذي استهلك كل ثروته الطائلة في هذه الأبحاث حتى أفلس تمامًا ، قال في مقدمة كتابه – حوليات الإسلام هذه . إنه إنما يريد بهذا العمل أن يفهم سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون حتى اليوم يؤمنون بمحمد ويدينون به نبيًّا ورسولاً.

فهو بهذا يعلن عن هدفه بوضوح وصراحة(أن يفهم سر المصيبة الإسلامية) أي سر الإسلام ومصدر قوته ويكتب المستشرق(باول شمتز) كتابًا يتناول فيه عناصر القوة الكامنة في العالم الإسلامي والإسلام . اسم الكتاب وقد ترجم إلى العربية تحت عنوان (الإسلام قوة الغد العالمية(يعلن الكاتب عن هدفه وهو تبصير أوربا الغافلة عن هذه القوة التي هي (صوت نذير لأوربا وهتاف يجوب آفاقها ، يدعو إلى التجمع والتساند الأوربي لمواجهة هذا

(١) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص٧٣-٧٤

العملاق ، الذي بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه فهل يسمع أحد؟ هل من مجيب؟ والكتاب كله تحكمه هذه الروح روح الحقد والتأليب على الإسلام . الكلام المتقدم نفسه يكرره المستشرق – ألبير شاميدور– في كتابه حمراء غرناطة بعد أن تحدث عن عظمة الآثار الإسلامية في غرناطة إن هذا العربي الذكي الشجاع الذي استطاع أن يجمع العالم في مائة عام كما استطاع أن يفتح نصف العالم أيضًا في مائة عام قد ترك لنا في حمراء غرناطة آثار علمه وفنه ... إن هذا العربي الذي نام نومًا عميقًا مئات السنين ، قد استيقظ وأخذ ينادي العالم (هأنذا أعود إلى الحياة) فمن يدري قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالعرب فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية ﴾ ثم يقول لست أدعي النبوة ، لكن الإمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة ، لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها . ثم ينادي أبيدوا أشباح العرب في الحمراء أبيدوها قبل أن تبعث .

والقوم بمثل هذا الكلام المتقدم يكشفون عن أهدافهم تجاه العالم الإسلامي والعربي .ويوضح ذلك قول (روجيه جارودي) ذلك الفيلسوف الفرنسي الذي كان زعيم المذهب الوجودي والذي كان مرشحًا لزعامة الحزب الشيوعي قال (لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ البداية إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية).

ومن المستشرقين من كان له أهداف علمية خالصة بينة هي الاستفادة من الجوانب الإسلامية المشرقة وهذه لا يقصد منها إلا البحث العلمي والتمحيص ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم وهذا الصنف قليل جدًا ، وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الخطأ والاستنتاجات البعيدة عن الحق إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التأريخية على حقيقتها فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتهم ، ناسين الفروق الطبعية والنفسية والدينية التي تفرق بين البيئة التأريخية التي يدرسونها وبين البيئة الخاصة التي يعيشونها .

وهذه الفئة هي أسلم الفئات وأقلها خطراً ، إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يبيّن لهم ومنهم من يعيش بقلبه وفكره في قلب البيئة التي يدرسها فيأتي منطبقًا مع الحق والصدق والواقع ، ولكنهم يلقون عنتًا من أصحاب الأهداف الأخرى ، إذ سرعان ما يتهمونهم بالانحراف عن المنهج العلمي والانسياق وراء العاطفة والرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم كما فعلوا مع توماس إرنولد

حيث أنصف المسلمين في كتابه الدعوة إلى الإسلام وهذا يعتبر من أدق وأوثق مراجع المستشرقين في تأريخ التسامح الديني في الإسلام . يطعن المستشرقون المتعصبون – خاصة المبشرون منهم – بأن مؤلفه كان مندفعًا بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين مع أنه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها ومن هؤلاء أيضًا كما تقدم من يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه مثل المستشرق الفرنسي رينيه الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه وتسمى باسم ناصر الدين رينيه وكتب كتابًا اسمه أشعة خاصة بنور الإسلام . بيَّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله – صلى الله عليه وسلم– . (١)

المستشرقون هو أدمغة الحملات الحديثة وشياطين الغزو الثقافي للعالم الإسلامي ظهروا في حلبة الصراع في فترة كان المسلمون فيها يعانون من الإفلاس الحضاري والخواء الروحي وفقدان الذات مما جعل الفرصة سانحة لأولئك الأحبار والرهبان جنود الصليبية الموتورين كي يثأروا لهزائمهم الماضية وينفثوا أحقادهم الدفينة واقتضت خطة وجودهم في عصر يعبد العلم ويضفي عليه قداسة الوحي أن يخلعوا عن كواهلهم مسوح الرهبان والأحبار وسلاح الميدان وأن يرتدوا لباس العلم ومسوح المعرفة ثم جندوا آلاف المخطوطات ومئات المؤسسات الثقافية المختلفة لمعركة استئصال الإسلام وعكفوا في صوامع البحث يديرون الصراع المرير بخبث ودهاء. وما كان يغيب عن بالهم أن القضاء على الأشلاء الباقية من الكيان الإسلامي الضخم وسد كل الطرقات التي تهيئ لبعث الحياة فيها لا تتم إلا بسلب الأمة ذاكرتها متمثلة في تراثها العظيم وفي الوقت نفسه يشنون حربًا نفسية شرسة لإبادة ما يزال عالقاً في أذهان المسلمين من عقائد الإسلام ومفهوماته وإن لم تكن الإبادة التامة فلتكن الزعزعة والتفتيت.

(١) عبد الكريم علي باز ، مرجع سابق ، ص٢٣-٢٤